الظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي مقاربة في المفهوم والإجراء

Quranic phenomenon in the concept of Malik bin Nabi Approach in concept and procedure

أ.د رابح طبجون

المدرسة العليا للأساتذة (آسيا جبار) قسنطينة
tabjounrabah@gmail.com

تاريخ الوصول: 2017/12/25 / القبول:2019/03/06/ النشر على الخط: 2019/03/15

Received:25/12/2017 / Accepted: 06/03/2019 / Published online: 15/03/2019

ملخص:

تشكل (تيمة) الظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي علامة فارقة في توجيه الدراسات القرآنية المعاصرة نحو الانفتاح على التحولات المنهجية وفاعليتها الإجرائية، ويتحدد موقعها نظرا لكونها منظورا بديلا للدراسات التقليدية وهياكلها المتوارثة التي تركز على الجانب التعليمي أو الجمالي للمفردات القرآنية، والتي لا تستثمر المعنى الإبستمولوجي الشامل للنص وتمثلاته وقيمه الدلالية وارتباطاته السياقية باعتبارها إستراتيجية قرائية فائقة الحساسية وحراك فكري وإبداعي يؤسس لتقاليد جديدة للخطاب تجسيدا لأبعاد الظاهرة في نظمها العلائقية وأنماطها المختلفة.

ويقف مالك بن نبي في مواجهة صارمة لمراجعة عملياتنا الفكرية ومواقفنا وأذواقنا لكي يختبر جدوى مفاهيمنا وقناعاتنا ويعيد تقويم قيمنا باستمرار وملاحقتها وتطويق تحولاتها ومستجداتها. "ويحذر من السطحية، ومن الإعجاب المندهش بأشياء العالم الحديث، الذي يصادر التفكير ويسد منافذ الإرادة ويبدد حيوية الإنتاج والثروة وتوزيعها الحضاري"[1]، ومن هنا فاليقظة ضرورية لدراسة الميدان وتحسس السير في مساربه الشائكة لإدراك سنن النظام الكوني.

فكيف حاول مالك بن نبي استنطاق أبعاد الظاهرة القرآنية وفك أبجديتها وإعادة توصيفها باعتبارها القوة المركزية الفاعلة والمؤثرة في الثقافة العربية الإسلامية، بحثا عن الحقيقة التي تنتظمها لتدشين ممكنات بحثية جديدة داخل هذا المشروع الكبير الذي انبثقت عنه رؤية الكون والوجود، وكيف استثمر المفاهيم والرؤى وحوَّلها إلى حقيقة ماثلة تُرسخ المواقف والتوجهات وتجيب باستمرار على الأسئلة الإشكالية بتماسها وتخومها ؟ دون السقوط في أطروحات أنساق الثقافة الكولونيالية أو الانخراط في دعوات الاستشراق التي كانت تطبق الآفاق والموصولة حصرا بالمكون الفكري الغربي وتراكماته الإنتاجية.

الكلمات المفتاحية: الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، المقاربات الجديدة في التفسير، نقد الطرق التقليدية في التعليم.

[1] عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، ج1، منشورات ابن مرابط، الجزائر2016 ، ص268.

Abstract:

The Malik bin Nabi's Qur'anic phenomenon is a milestone in directing contemporary Quranic studies towards openness to methodological transformations and their procedural effectiveness. Its location is determined by its being an alternative perspective to traditional studies and their inherited structures that focus on the educational or aesthetic aspect of the Qur'anic vocabulary, which does not invest the epistemological meaning And its contextual linkages as a highly sensitive reading strategy and an intellectual and creative movement that establishes new traditions of discourse to reflect the dimensions of the phenomenon in its different relational systems and patterns.

Malik bin Nabi stands in a strict confrontation to review our intellectual processes, attitudes and tastes in order to test the feasibility of our concepts and convictions, and to constantly reassess our values, track them and encircle their transformations and developments. "It warns of the surface, and the astonishing admiration of the things of the modern world, which confiscate thinking and fill the will of the will and revive the vitality of production and wealth and its cultural distribution," hence the necessary vigilance to study the field and the sense of walking in its thorny path to the realization of the Sunan system.

How did Malik bin Nabi explore the dimensions of the Quranic phenomenon and decipher it as a central and influential force in the Arab-Islamic culture in search of the truth that it is organizing to inaugurate new research possibilities within this great project that resulted in the vision of the universe and existence, Stresses the positions and trends and constantly answer the problematic questions by their petition and boundaries? Without falling into the theses of the patterns of colonial culture or engaging in calls for Orientalism, which applied horizons and connected exclusively to the Western intellectual component and its productive accumulations.

Keywords: Quranic phenomenon, Malik bin Nabi, new approaches to interpretation, criticism of traditional methods of Quranic education

تمهيد:

أراد المفكر مالك بن نبي[1] (1905-1973) خلخلة بنية الدراسات القرآنية الكلاسيكية رغم وجاهتها ومركزيتها في تكوين المنجز الموروث، والدخول إلى عالم الظاهرة القرآنية ورصدها وتأطيرها بأدوات العصر وفضاءاته المتنوعة وفق رؤية نقدية جديدة تتميز بالتأمل والاتزان، وتمارس دورها في ضبط وتوثيق مختلف أوجه العلاقات الممكنة والمحتملة وتنويع روافدها، متجاوزا في ذلك الأفق المعرفي والمنهجي الذي توقف عنده الاستشراق التقليدي، ويندرج تأليف كتاب (الظاهرة القرآنية)[2] كإضافة جديرة بأن تستنطق بمقصدية في سياق الأطر النظرية عن طريق "إحداث ثورة منهجية في مجال تفسير القرآن الكريم ضمن سياقه الثقافي ومحيطه التاريخي، وتزويد المثقف المسلم بالثقافة الغربية الحديثة بأسس راسخة تسمح له بتأمل واع للدين الإسلامي"[3]. ومحاولة تخليص العقل الغربي من بعض الأحكام التعسفية المتعجلة التي أسسها فصيل من الكتابات المتحاملة واقعا أو تاريخا، وكذلك منح الشباب المسلم تصورات جديدة قوامها الثراء والتنوع بما في ذلك "فرصة التأمل الناضج في الدين"[4].

ويمثل مالك بن نبي النخب المثقفة المتعددة الروافد التي نهلت من المعين الديكارتي ونزعته العقلانية، وواكبته بوصفه منهجا للتفكير كما تطرحه التصورات الحديثة، والأخذ بمنجزه ومفاهيمه والتمكن من أدواته الإجرائية في خطية الرؤية والتحليل، والدعوة لتطوير ميكانيزمات التفكير وفق ما وفرته معطيات العلم وتحولاته العميقة، والاستفادة من معارف العصر في منابعها الغربية المؤسسة ضمن هذا التوصيف في التشخيص والنقد والتأويل "لأنه وبدون المناهج الصالحة تبقى المعطيات خرساء نستنطقها فلا تجيب"[5].

---

[1] مالك بن نبي (1905-1973): رائد من رواد الفكر المعاصر وقيمة إنسانية متميزة ومثقف بارز من صفوة جيله، صقلته التجربة والاكتشاف والتمرس الطويل، له دراية عميقة بإيقاع الحضارات، لم يقف عند حدود القوالب الجاهزة أو المدارس المستوردة، استقبلت أعماله النوعية بكل التكريم اللائق بها، وحظيت بأقصى درجات الاهتمام والتقدير، مثل: شروط النهضة 1948، وجهة العالم الإسلامي 1954، الفكرة الإفريقية الآسيوية 1956، فكرة كومنولث إسلامي 1958، مشكلة الثقافة 1959، الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة 1959، تأملات 1961، في مهب المعركة 1962، آفاق جزائرية 1964، مذكرات شاهد القرن 1965، إنتاج المستشرقين 1968، الإسلام والديمقراطية 1968، معنى المرحلة 1970، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي 1970، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين 1972، بين الرشاد والتيه 1972، المسلم في عالم الاقتصاد 1972.

[2] الظاهرة القرآنية: نشر مالك بن نبي هذا الكتاب عام1947 في طبعته الفرنسية بعنوان: Le Phénomène Coranique. وصدرت طبعته العربية سنة 1958، قام بترجمته: عبد الصبور شاهين، ومن تقديم كل من الأساتذة: محمد عبد الله دراز، ومحمود محمد شاكر.

[3] عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، منشورات ابن مرابط، الجزائر2014، ص141.

[4] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4، 1987، ص53.

[5] عبد الله العروي ومجموعة من الباحثين: المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1986، ص6.

1. مدخل مفاهيمي للظاهرة القرآنية:

تفصح كلمة الظاهر Apparence في ظل التصنيف المفهومي على "ما يبدو من الشيء مقابل ما هو عليه في ذاته"[1]، وقد جاء في معجم المصطلحات العربية أن مفهوم الظاهرة Phénomène "هي واقعة يمكن إدراكها بالحواس والتجربة"[2]. يهدف مالك بن نبي من خلالها إلى تطبيق منهج تحليلي جديد في تفسير القرآن الكريم ينطلق فيه من دراسة الظواهر (La Phénoménologie) ويستأنس بطرق التحليل النفسي وقواعده للوقوف على الأسس النظرية التي أنتجت هذه المعرفة مما يساعد على إنتاجية القراءة، ومقاربة التأمل وحيثياته من خلال تأويل مشروع. فقد يرشدنا التحليل إلى جوهر (الظاهرة)، وربما يهدينا إلى (قانونها) الداخلي.

غير أن (الظاهرة)[3] التي اعتمدها مالك بن نبي في رؤيته النقدية المتعددة الأبعاد تندرج في السياق الذي عرفها به غاستون باشلار Gaston Bachelard (1884-1962) في مقولاته المؤسسة وتصوراته المنهجية الهادفة التي ما تزال تحتفظ بقيمتها وحيويتها، فهي لا تدعي التوصل لحقيقة مطلقة مجردة، بل تحرص على المزاوجة بين الجانب الذاتي والموضوعي، ويعد هذا التصنيف إجرائي بالأساس باعتباره مطلبا ملحا فرضته الأسس المنهجية التي تعتني بالعلاقات والأطر والطرائق، وذلك لتيسير وبلورة الفهم والاستيعاب، فالمضامين التي تحملها هذه الكلمة (ظاهرة) ترتبط بعالم الشهادة التي يتأملها مالك بن نبي، والتي أخرجها من بُعدها المرجعي وأدرجها في بعد تداولي جديد ضمن مسارات التمثل، بينما انخرطت نخبة من المفسرين التقليديين في عالم الغيب وانكفأت على استبطان مفرداته والتماهي في مقولاته.

ومن أهم الظواهر التي استثمرها هذا المنجز التأسيسي وضعا ومسارا وجسدها عبر منطلقاته النظرية وتطلعاته، والتي تراهن على الوعي والتأمل:

-مدخل إلى دراسة الظاهرة القرآنية.

-مصدرية القرآن الكريم ومناقشة البراهين المؤكدة على ربانيته.

-الوحي وصحة دليل النبوة وملابسات النزول.

-أصول الإسلام، التي أثبتت المصادر ربانيته مقارنة بجميع الأديان، وأن القرآن في مسيرته التاريخية لم يتعرض مثلما تعرضت له الأديان الأخرى إلى التزييف والتحريف، وهي ظاهرة جديرة بالملاحظة.

-العلاقة بين القرآن والكتاب المقدس.

---

[1] ثروت عكاشة: المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية، مكتبة لبنان، 1990، ص21.

[2] مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، 1984، ص240.

[3] Michel Mensuy : Gaston Bachelard et les éléments, Librairie José Corti, Paris 1967.

-القيمة الاجتماعية لأفكار القرآن وتأثيرها الروحي والخلقي.

وناقش في تركيز منهجي ووعي مغاير وبصيرة نافذة عددا من القضايا الإستراتيجية التي تنهض في سياق تحقيق مقاربات دقيقة ومتنوعة، تغطي موضوع الوحي ومضمونه الذي يرى تميزه الفاصل تماما مع الظاهرة القرآنية بكل عناصرها ودوالها وخصائصها ومميزاتها، ومن ثم يتجلى الفصل فيها واضحا بين الوحي القرآني والذات المحمدية، ويرفض مالك بن نبي الاتجاه الذي يريد تفسير الظاهرة القرآنية وفق نظرية (الشعور) ولا يراه مقنعا، كما يحرص على ترسيخ العقيدة الغيبية بطريقة يستوعبها العقل وفي ظلال كل أبعادها الروحية.

وتكتسي هذه الخطوة أهمية قصوى في سياق تحديد المجال الإبستمولوجي وإضاءة خطوطه الموجهة، إنها رصد نوعي للظاهرة القرآنية ومكوناتها الخاصة في شكل متأني – بعيدا عن المجازفة والاختزال المخل– قوامه الحضور المختلف عن سواه، دالة على تمكن صاحبها من استثمار آليات القراءة والإبداع. مجافيا المقاربات ذات الإنزياحات الشاذة التي تبحث عن تميز موهوم، ويغيب عن معظمها عنصر التبلور والنضج والتماسك.

2. انتقاد مؤسسة التعليم والتفسير الموروث:

في كتابه (مذكرات شاهد القرن) يبدي مالك بن نبي تبرمه من طريقة تحفيظ القرآن في صغره، الثقيلة والصعبة الممزوجة بالتخويف والقهر، وفي عرض مؤثر عن التجربة يقول: "لقد أرسلوني إلى المدرسة الفرنسية، إلا أنني في الوقت نفسه ثابرت على التردد على مدرستي القديمة لتعلم القرآن، فكنت أقصدها كل يوم في الصباح الباكر لأكون فيما بعد عند الثامنة صباحا في المدرسة الفرنسية. وكنت أجد في ذلك صعوبة كبيرة، أضف إلى هذا أن الفارق الذي كنت أحس به بين المدرستين والمعلمين، كان يجعلني لا أطيق هذا الوضع، فبدأت أتغيب عن مدرسة القرآن القديمة وسجادة الحلفاء، مما كان يعرضني لعقاب متواصل من أبي ومن معلم القرآن، وهكذا زادني كرها بمدرسة القرآن، واستمرار هذا الوضع جعل حالي تسوء في المدرستين، وهكذا اقتنع والدي فانقطعت عن مدرسة القرآن القديمة لأنني لم أتعلم الكثير على الرغم من السنوات الأربع التي صرفتها فيها، فحتى ذلك الوقت لم أكن قد تجاوزت في قراءتي سورة (سبح)"[1].

عاش الفتى مالك بن نبي تناقضا داخليا بين المدرسة القرآنية والمدرسة الفرنسية التي استقر فيها، استعدادا – ضمن إرهاص البدايات– للتوظيف في القضاء الشرعي كما كان والده، لكنه بعد سن البلوغ بدأت مداركه الدينية والوطنية تتبلور، ووعيه المعرفي والنضالي المبكر يتعمق بفضل رجال الحركة الوطنية، مما ساعده على رسم مساره الخاص "هكذا نجد ذلك الطفل

[1] مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2013، ص24.

الذي حفظ بصعوبة سورا يسيرة من القرآن الكريم لعقم الطرق التربوية المتبعة في الكتاتيب القرآنية آنذاك تتفتق مواهبه وينكب عليه منذ بلوغه سن الرشد إلى أن وافته المنية، متمعنا ومفسرا بل ومعاتبا المفسرين ومبدعا لمنهج جديد في التفسير"[1].

انطلق مالك بن نبي من نقد الدراسات السابقة للقرآن الكريم وما إلى ذلك من ملابسات زمنية محيطة بها، وتسليط الضوء على جوانبها المتعددة بنفس موسوعي وشمولي، وكشف منطوقها وتخومها الدلالية المحدودة الآفاق على نحو مبكر، وتوظيف ما توفر لديه من معرفة في سياقاتها المختلفة تدفع إلى النظر والتدقيق، مشبعة بممكنات تجديدية في تفسير القرآن الكريم لتفعيل مدلولات الألفاظ، فالقرآن في رأيه لا زال يحتفظ بكثير من أسراره، وسيظل حاملا لأبعاد لانهائية من خيارات التأويل التي تسكن النص وتضمن له الخلود.

لقد سجل مالك بن نبي ملاحظاته على مدارس التفسير الكلاسيكي ومقولاتها السائدة منها تفسير طنطاوي جوهري (1870- 1940) الذي كان بعيدا عن الاهتمامات المنهجية ويفتقر إلى الهاجس التأطيري والأدوات الإجرائية الفعالة- حسب رأيه-، وكذلك المجهودات الرائدة لكل من رشيد رضا (1865- 1935) ، وأستاذه محمد عبده (1849- 1905) التي حاولت التجديد في زمانها إلا أن الجدل الديني كان سمتها الأساسية وحراك جوهرها، حيث يقول: " التفسير الكبير الذي ألفه الشيخ طنطاوي جوهري ، إنتاج علمي أشبه بدائرة معارف، ولا ينطوي على أقل اهتمام بتحديد المنهج، أما تفسير الشيخ رشيد رضا، الذي اتبع فيه إمامه الشيخ محمد عبده ، فلم يضع هو الآخر هذا المنهج، فقد كان همه أن يخلع على المنهج القديم صبغة عقل جديد. ومع أنه لم يعدل طريقة التفسير القديم تعديلا جوهريا. فإنه قد خلق في الصفوة المسلمة التي تعشق التجديد الأدبي اهتماما بالنقاش الديني"[2].

وحاول أن يبين النقص بل الفشل الذي أنتجته هذه الدراسات في عزلتها عن الرؤى والدلالات المعاصرة حتى غدت مسلمات مطلقة يصعب نسفها "لذلك عمد مالك بن نبي إلى تقييم مناهج المفسرين التي لم ترضه في معظمها لأنها لم تنفذ إلى القرآن الذي يحرك الحياة والذي يمس الطبيعة والضمير الإنسانيين مباشرة والذي يمس مجال حياة الإنسان، وجوانب فكره ومناحي سلوكه"[3].

وليس من باب الإدعاء القول في ظل المتغيرات المعرفية، أنه بات من الضروري تحقيق التجاوز وإحداث النقلة النوعية بكل عناصرها، كما يؤكد مالك بن نبي على أن "ضرورات التطور تقتضي تعديل منهج التفسير القديم تعديلا، يناسب في حكمة وروية مقتضيات الفكر الحديث"[4].

[1] عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، منشورات ابن مرابط، الجزائر2014، ص146.
[2] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص58.
[3] عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ص141.
[4] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص57.

وكذلك ليس من مجازفة القول: "إن مشكلة التفسير القرآني على أية حال هي مشكلة العقيدة الدينية لدى المتعلم، كما أنها مشكلة الأفكار الدارجة لدى رجل الشارع، ومن هاتين الوجهتين ينبغي أن يعدل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مر بها العالم الإسلامي"[1].

أما مفسر اليوم، ففي تفاعله الحاسم واستقصائه حول الوعي النقدي متعدد الأبعاد، يفرز باستفاضة مستويات جديدة من الرؤية تفكك الأنساق المهيمنة وتعيد إنتاج المعنى "وأصبح مضطرا إلى أن يتناوله في صورة أخرى وبوسائل أخرى، فهو يتناول الآية من جهة تركيبها النفسي الموضوعي، أكثر مما يتناولها من ناحية العبارة، فيطبق في دراسة مضمونها طرقا للتحليل الباطن"[2].

وفي الآفاق القريبة ستنتصب عناصر جديدة تمارس حضورها بشكل قسري، وربما ستقوض التصورات والمفاهيم السابقة وأنساقها المستهلكة مما يسمح لها بإنتاج أدوات علمية متمايزة "وسيكون مفسر الغد بحاجة إلى معرفة لغوية وأثرية واسعة، وإن عليه أن يتتبع الترجمة اليونانية للكتاب المقدس، والترجمة اللاتينية الأولى من خلال الوثائق العبرية، وبصورة أعم عليه أن يتتبع جميع الوثائق السريانية والآرامية ليدرس الكتب المقدسة"[3].

والجدير بالذكر أن مالك بن نبي سلط سخطه على بؤس المؤسسة الدينية وطرق تسييرها في عهد الاستعمار الفرنسي والأنماط الفكرية التقليدية وليس نقد المنظومة الدينية المقاومة أو التعليم القرآني في حد ذاته، فقد ثمن الجهود المبذولة التي لا سبيل إلى إنكارها بما ينسجم وظروف الفترة.

3. السياق التاريخي والمعرفي لكتاب الظاهرة القرآنية:

قدم مالك بن نبي كتاب (الظاهرة القرآنية) كأساس لمنهج استعادة طريق النهضة، فقد كان أول كتاب يهتم بترجمته إلى اللغة العربية بعد كتاب (شروط النهضة)، "حرص فيه على مواجهة الهيمنة الاستشراقية حول الدراسات القرآنية وسبر لعمق التراث ودوره في إعادة الثقة من خلال منهجية العصر الحديث"[4].

ورغم أن النسخة الأولى للكتاب قد أحرقت في ظروف خاصة فإن رغبة مالك بن نبي كانت شديدة في إخراج الكتاب بناء على فكرته الأولى سعيا منه لتحقيق منهج تحليلي في دراسة (الظاهرة القرآنية) بإعادة مقوماتها الأساسية.

[1] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص59.
[2] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص67.
[3] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص68.
[4] عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، ج1، منشورات ابن مرابط، الجزائر2016 ، ص277.

والكتاب طُرح للتداول في مرحلة حساسة ودقيقة تزامنت مع موجة عالية الوقع للتشكيك في قدسية القرآن التي تم فبركة مقولاتها بعناية في مخابر الاستشراق الغربي، ثم احتضنتها في مرحلة تالية كتابات بعض الأدباء العرب، وروجت لها باعتبارها من مكتشفات العصر.

4. الظاهرة القرآنية بين الاستحسان والنقد:

أحدث كتاب مالك بن نبي ضجة كبيرة، واستقبل بترحاب واحتفائية منقطعة النظير خاصة في الأوساط الأكاديمية وتحول إلى وثيقة هامة بيد المختصين والباحثين "كقاعدة أساسية لبناء منهج في الدراسات القرآنية تؤسس الثقة بقوة التراث في مرتكزاته الكونية وتعيد بناء المسلم من جديد في منطق دورة حضارية إنسانية جديدة"[1]، وكان عمله محل إطراء وتقدير لدى النخب الجامعية الفاعلة في الحقل الثقافي التي ما فتئت دائرتها تتسع وتتزايد.

فقد جاء في مقدمة عمر كامل مسقاوي أن لهذا الكتاب "خطة في إرساء العقيدة عن طريق العقل والإيمان معا"[2]. ثم بين في كتابه (في صحبة مالك بن نبي) " أن الظاهرة القرآنية دعوة للنخبة التي تربت على موائد الثقافة الغربية لولوج عالم القرآن الكريم بمعيار التأمل والخروج من هامشيتهم على أرصفة الحضارة الغربية والدخول في عمق القضية"[3].

وكان لكتاب الظاهرة القرآنية حضور إيجابي في إسلام الطبيب الفرنسي علي سلمان لنوا. حيث يقول: "أنا دكتور في الطب وأنتمي إلى أسرة فرنسية كاثوليكية. وقد كان لاختياري لهذه المهنة أثره في انطباعي بطباع الثقافة العلمية البحتة وهي لا تؤهلني كثيرا للناحية الروحية...أما مركز الثقل والعامل الرئيسي في اعتناقي للإسلام، فهو القرآن. بدأت قبل أن أسلم، في دراسته بالعقلية الغربية المفكرة الناقدة، وإني مدين بالشيء الكثير للكتاب العظيم الذي ألفه مستر مالك بن نبي واسمه "الظاهرة القرآنية" فاقتنعت بأن القرآن كتاب وحي منزل من عند الله"[4].

يقول الدكتور عبد القادر بخوش: "إن كتاب (الظاهرة القرآنية) زاخر بالرؤى النقدية والتمحيصية المعاصرة التي تستوجب بعثها من جديد ليستفيد منها المتخصص في الدراسات القرآنية، إن تأثر الشباب المسلم بالمستشرقين لعلو كعبهم حفز مالك بن نبي على مناقشة قضايا الظاهرة القرآنية وكأنه في مناظرة من مناظرات علم الكلام الذي كان في أوج عطائه

[1] عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، ج1، ص279.
[2] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص8.
[3] عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، ج1، ص269.
[4] أحمد بوعود: كيف تعامل مالك بن نبي مع القرآن؟ أنظر المقالة على الموقع، http://www.binnabi.net/

ينافح عن القرآن الكريم ويفند الشبهات عنه. مبرهنا بالأدلة والبراهين الثابتة بالمصدر الإلهي للقرآن الكريم، هذا ما تقره الحقائق التاريخية و تؤكده العلوم الكونية"[1].

ورغم القبول الواضح والتلقي الإيجابي لهذا الجهد المعتبر، هناك أسماء أكاديمية تعاضدت مع بعضها البعض لتسلط عليه أقسى الألفاظ حدة، وأكثر أنواع الانتقاد سلبية، فقد كان مالك بن نبي بالنسبة إليها مشاكسا وغير مستساغ، لم تهدأ له معركة حتى تقام ضده أخرى، ورغم رياح التغيير لكنه ظل صامدا "بل لا تزيده الأحداث إلا تصلبا في التمسك بما يراه حقا وتحديا للاستعمار والقابلية للاستعمار"[2].

منها دعوة محمد أركون[3] لنبذ الكتاب باعتباره "كتابا هزيلا سطحيا ! لماذا ؟ لأنه دافع عن القرآن الكريم وفند مزاعم المغرضين، بل إنه آمن بقدسية القرآن الكريم وربانيته، وأبى أن ينزله منزلة النص البشري. وهذا لم يُرح محمد أركون الذي حاول جاهدا أن يرفع كل قدسية عن القرآن الكريم"[4].

وانخرط قبله في جبهة الاضطهاد الذي تعرض لها مالك بن نبي المستشرق الفرنسي المعروف لويس ماسينيون Louis Massignon (1883- 1962)، وقد أشعل فتيل هذه الضغينة محاضرة قدمها مالك بن نبي في نادي الطلبة المغاربة بعنوان (لماذا نحن عرب؟)[5] ? Pourquoi somme- nous Arabes في أواخر شهر ديسمبر من عام 1931.

وذهب ماسينيون بعيدا في محاولة ردعه، فطفق يشدد عليه الخناق بإحكام المأساة التي لازمته ويحصي عليه أنفاسه وخطواته "وبعد ثلاثة أيام – من وقائع المحاضرة– وصل إلى مالك رجل أمن فرنسي، عرفه بهويته، وقال له: من الذي ينفق عليك؟ فقال له مالك: والدي. ثم انصرف رجل الأمن مباشرة. ثم تلقى مالك استدعاء من ماسينيون، فاستغرب مالك بن نبي من صيغة الدعوة من كونها غير مباشرة وفيها فوقية، فلم يأبه لها. وبعد زمن قصير وصل إلى مالك خبر من أبيه في الجزائر يخبره فيه أنه يعاني من مضايقات في عمله ويحتاج تدخل ماسينيون لإصلاح وضعه، وانتهت هذه المضايقات بخروج أبيه من وظيفته وضياع حقوقه وهو في الثمانين من العمر"[6].

---

[1] عبد القادر بخوش: القراءات المعاصرة للقرآن الكريم بين مالك بن نبي ومحمد أركون، رؤية نقدية، وقائع ندوة في جامعة قطر، أنظر الموقع، http://www.qu.edu.qa/ar/sharia

[2] عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ص108.

[3] للتوسع أنظر، محمد أركون: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط2، 2005، ص15.

[4] أحمد بوعود: كيف تعامل مالك بن نبي مع القرآن؟ أنظر المقالة على الموقع، http://www.binnabi.net /

[5] يذكر مالك بن نبي تفاصيل سبب هذه العداوة مع لويس ماسينيون ، قائلا: "كانت أطروحتي تقع على طرفي نقيض من آراء ماسينيون البربرية واللاتينية والتنصيرية والمفرنسة"، للتوسع ، أنظر، مالك بن نبي: العفن ، منشورات ابن مرابط، الجزائر2016 ، ص28.

[6] إبراهيم السكران: مصحف البحر الميت، أنظر الدراسة على الموقع، https://saaid.net/bahoth/133.doc

يقول مالك بن نبي في مرارة عن هذه الحادثة ذات الطابع العنصري الاستحواذي: "كم كانت السمكة الصغيرة لا تشعر بالخطورة...وتحطمت رخوة لينة بفتور على شفتي ماسينيون"[1]. و سرعان ما يقصف الذكريات العارية حين يروي يوميات الشقاء والمطاردة، وقسوة الواقع ومراراته، وما جناه من موقفه المكابر وعناده المثابر، قائلا: "فالإحسان المسيحي لا يتردد ولا يقف عند حد. فعندما يريد تحطيم نفس أو فكر أو عمل أو إنسان فإنه يضرب كل العائلة، حتى النساء والصبيان إن لزم الأمر"[2].

5. معركة العقل في مواجهة الإستشراق:

أراد مالك بن نبي أن يقارع الغرب بآليات ثقافته وأنساقها المعرفية، والكشف عن أسرار مكره، وتضليله ومكائده في نسيج سياقي جديد متسق دلاليا ومعنويا، وفي روية واضحة، "إن المرجعة الإسلامية أساسية في تركيبه وفي تفكيره إضافة إلى إطلاعه الواسع على الثقافة الفرنسية وعلى ما كتبه الإنجليز، وكان له إطلاع واسع على ما يكتبه الأمريكان والألمان، لأنه كان يعيش مدة ثلاثين سنة في فرنسا، فكان في قلب الثقافة الغربية بباريس، ولكن دائما تجد منطقه الأساسي إسلاميا"[3]. وقد جاء منقلبا على "هذا الإستشراق الذي توغل في الحياة العقلية في البلاد الإسلامية، محددا بذلك اتجاهها التاريخي إلى درجة كبيرة"[4].

وأمام حالة الإحساس باللاجدوى من إمكانية إيجاد صيغة منصفة، وفي سياق إرساء تقليد علمي رصين، يقول مالك بن نبي: "وإنه مما يثير العجب أن نرى كثيرا من الشباب المسلم المثقف يتلقون اليوم عناصر ثقافة تتصل بمعتقداتهم الدينية، وأحيانا بدوافعهم الروحية نفسها، من خلال كتابات المتخصصين الأوروبيين. إن الدراسات الإسلامية التي تظهر في أوروبا بأقلام كبار المستشرقين واقع لا جدال فيه، ولكن هل نتصور المكانة التي يحتلها هذا الواقع في الحركة الفكرية الحديثة في البلاد الإسلامية؟"[5].

وفي نهاية المطاف يسجل وعيا متقدما بالإشكال المطروح وسلطته بين المخفي والمنظور، مؤكدا بأن "هذا كله لا غبار عليه لو اقتصر الاستشراق بمناهجه على الموضوع العلمي، ولكن الهوى السياسي الديني كشف عن نفسه أحيانا بكل أسف في تآليف هؤلاء المتخصصين الأوروبيين في الدراسات الإسلامية"[6].

---

[1] مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ص242.

[2] مالك بن نبي: العفن، ص13.

[3] محمد البنعيادي: مالك بن نبي في ذاكرة عبد السلام الهراس، كتاب مجلة العربية، السعودية، عدد395، ذو الحجة 1430، ديسمبر 2009 ، ص24.

[4] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص55.

[5] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص54.

[6] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص55.

6. نماذج تطبيقية لتحليل النص القرآني:

فيما يلي إضاءة لنماذج من تحليل بعض الآيات القرآنية وفق رؤية مالك بن نبي المنهجية وتطور مسارها:

1 - في قوله تعالى:﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف، الآية: 9].

في هذه الوقفة يرى مالك بن نبي[1] أن هذه الآية حجة يقدمها القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم كي يستخدمها في جداله مع المشركين، ولابد أن نتأمل محتواها المنطقي من ناحيتين:

فهي تحمل أولا: إشارة خفية إلى أن تكرار الشيء في ظروف معينة يدل على صحته، أي أن سوابقه في سلسلة معينة تدعم حقيقته بوصفه (ظاهرة) بالمعنى الذي يسبغه التحديد العلمي للكلمة: (فالظاهرة هي الحدث الذي يتكرر في الظروف نفسها، مع النتائج نفسها).

وهي تحمل في مدلولها، ثانيا، ربطا واضحا بين الرسل والرسالات خلال العصور، وأن الدعوة المحمدية يجري عليها أمام العقل ما يجري على هذه الرسالات. ومن هذا نستخلص أمرين:

- أنه يصح أن ندرس الرسالة المحمدية في ضوء ما سبقها من الرسالات.
- كما يصح أن ندرس هذه الرسالات في ضوء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، على قاعدة أن (حكم العام ينطبق على الخاص قياسا، وحكم الخاص ينطبق على العام استنباطا).

ولا مانع إذن من أن نعيد النظر في معنى (الإعجاز) في ضوء منطوق الآية الكريمة.

وحاصل هذا أننا إذا أعدنا الأشياء في حدود الحدث المتكرر، أي في حدود حيوية الظاهرة، فالإعجاز هو:

1 - بالنسبة إلى شخص الرسول: الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها.

2 - وهو بالنسبة إلى الدين: وسيلة من وسائل تبليغه.

وهذا المعنيان للإعجاز يضيفان على مفهومه صفات معينة:

أولا: أن الإعجاز بوصفه (حجة) لابد أن يكون في مستوى إدراك الجميع، وإلا فاتت فائدته، إذ لا قيمة منطقية لحجة تكون فوق إدراك الخصم، فهو ينكرها على حسن نية أحيانا.

ثانيا: ومن حيث كونه وسيلة لتبليغ دين: أن يكون فوق طاقة الجميع.

ثانيا: ومن حيث الزمن: أن يكون تأثيره بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه.

وهذه الصفة الثالثة تحدد نوع صلته بالدين، الصلة التي تختلف من دين إلى آخر، باختلاف ضرورات التبليغ.

فهذا هو المقياس العام الذي نراه ينطبق على معنى الإعجاز، في كل الظروف المحتملة بالنسبة إلى الأديان المنزلة.

[1] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص63.

إن هذه الآية في نظر مالك بن نبي قد نقلت مفهوم الإعجاز من حيز التكوين النصي الجمالي القائم على الإحساس الذهني بالانبهار الذي يفحم الخصوم بمنطق التحدي ويقدم الحجج والبراهين ضمن الحقل البياني الصياغي إلى دوره الاجتماعي الإقناعي، فالمسلم المعاصر أصبح مضطرا أن يتناول الإعجاز في صور أخرى وبوسائل أخرى، وكما يقول: "فاعتماد التفسير على الدراسات الأسلوبية لإعجاز القرآن يلزمنا إضافة أساس عقلي باعتباره أحد وجوه الإعجاز القرآني"[1].

ومن خلال هذه الرؤية نلاحظ كيف طور مالك بن نبي مفهومه للإعجاز "باعتباره حدثا يحيط بالنبي أولا لتأسيس دوره وثانيا لدفع مكونات المجتمع الجديد وتحريك فاعليته عبر شبكة علاقاته الاجتماعية ولذا فالإعجاز بوصفه حجة إقناع لابد أن يكون بمستوى إدراك الجميع وأن يكون فوق طاقة الجميع بحيث يصبح الإعجاز الإلهي يقوم بدوره كوسيلة في تفعيل البيئة الاجتماعية وليس كغاية في إبراز القوة الإلهية التي هي أساس الخلق كله فالإعجاز القرآني هو الوسيلة التي تحدد فاعلية المبادرات في حدود الإدراك الزمني لكل عصر"[2].

أما النموذج الثاني فقد جعل من الآية التالية محورا للحديث عن نقطة جوهرية تستحق البحث والاستثمار وهي طبيعة الحفظ وأنماطه:

2 - في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر، الآية: 9].

وفيها يؤكد مالك بن نبي[3] أن هذه الآية دليل بامتياز على صحة القرآن، لأنه لم يثر النقد المقارن أية مشكلة حوله، سواء أكان ذلك شكلا أم موضوعا. فالقرآن يعد حجة مخطوطة ذات احتياطات ويقظة بالغة ووثوق تاريخي لا يقبل الجدل.

وهو دليل أيضا على استقلالية الظاهرة القرآنية عن الذات المحمدية، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يكرر ما يحفظ من الوحي لأن الذاكرة عمل تدريبي طبيعي، فجاء القرآن بما يضاد هذا السلوك الطبيعي في إشارة واضحة تهدف إلى مصادرة صريحة في استخدام ذاكرته لأن هناك قوى أعظم التزمت بحفظه في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه، الآية: 114].

ومع أن لهذا (الحفظ) تاريخه: فكما كان الوحي يتنزل، كانت آيات القرآن تثبت في ذاكرة الرسول وصحابته، فقد كانوا يستخدمون من أجل ذلك كل ما يصلح للكتابة، "حيث ليس في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مشكلة تدوين ومع ذلك فهناك توافق مع واقع التاريخ في استمرار القرآن كوثيقة تعود بكامل نصها لعهد الرسول"[4].

حتى إذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن محفوظا في الصدور، مدونا في الصحف، فكان من الممكن كلما دعت الحاجة موازنة الآيات بعضها ببعض، ولاسيما حين يعرض اختلاف من نوع صوتي أو لهجي.

[1] عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، ج1، ص281.
[2] عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، ج2، ص57.
[3] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص104.
[4] عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، ج1، ص293.

وفضلا عن ذلك سنجد أن هذه الموازنة تحدث مرتين، والطريقة التي نفذت بها هي في ذاتها حدث فذ في تاريخ الصناعة العقلية الإنسانية، فللمرة الأولى تتجلى صفات الطريقة المنهجية في عمل عقلي، كما تتجلى الدقة والإحكام التي هي الآن وقف على التفكير العلمي وحده.

وللانتقال السلس من مرحلة الخطاب الشفهي إلى مرحلة المدونة النصية اختار الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه لجنة يرأسها زيد بن ثابت رضي الله عنه ، الذي كان أمينا للوحي على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، كتبت القرآن منظما لأول مرة، بيد أن هذه الجهود قد أجازت نص القرآن مع بعض الاختلاف في اللهجات الشائعة بين عرب الجاهلية.

ولم يسترح عثمان الخليفة الثالث لهذا الاختلاف، وأمر بأن تكتب رواية موحدة فريدة بلغة قريش. فاختيرت لجنة ثانية على رأسها زيد بن ثابت أيضا، وكلفت أداء هذه المهمة الجديدة، وكان عليها هذه المرة أن تثبت النص القرآني نهائيا في لغة واحدة، حتى لا يتسبب تنوع اللهجات في إحداث الشقاق والتدابر في المجتمع الإسلامي، ومنذ ذلك العصر والقرآن يتنقل من جيل إلى جيل، بصورة وحيدة فريدة متعارف عليها، من (مراكش) إلى حدود (منشوريا).

أما في النموذج الثالث فقد سلط على الآية التالية منجزات المدرسة النفسية كما فهمها وسعى إلى تحقيقها، مستحضرا كل الفرضيات الممكنة، للوقوف على أبعادها وسماتها الخاصة:

3 - في قوله تعالى:﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[1].[التوبة، الآية: 40].

وفيها يؤكد مالك بن نبي[2] ضرورة الاهتمام بالتفصيل النفسي في هذه الحادثة التاريخية المقررة في أوثق المصادر، ذلك التفصيل الذي تدل عليه سكينة النبي صلى الله عليه وسلم، حين يطمئن رفيقه، في هدوء يفوق طاقة البشر، بينما الخطر والموت على قيد خطوات؛ وإن إخلاص النبي الذي نؤكده في هذا المقياس الأول بوصفه شرطا ضروريا، لاستخدام الآيات القرآنية وثائق نفسية ثابتة، هذا الإخلاص يتجلى هنا بوضوح وبصورة روائية في تلك اللحظة الحاسمة.

وفي نموذج آخر اعتبر أن (الوحي) ظاهرة لها خصوصية في جوانبها العقلانية والروحية باعتبارها الوسيلة الأساسية للنبوة مع التوسع في رسم صورة أوضح عن طبيعة هذا الكيان التصوري ليشمل (المكاشفة)، و(الإلهام) بما يجعل النص القرآني نصا متعاليا ومفارقا يستمد قدسيته ومقوماته الخاصة من إطاره المرجعي الإلهي لفظا ومعنى:

4 - في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ، أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ، مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ، إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص، الآية: 70/67].

[1] سورة التوبة، الآية: 40.

[2] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص133.

وفيها ينفي مالك بن نبي[1] كل التفسيرات التي قدمها الاستشراق نفيا موضوعيا، ويبين فيها أن هذه الآيات تسوق معنى الوحي لغايات جدلية، كما تتيح للنبي صلى الله عليه وسلم أن يستخدمه برهانا في محاججته خصوم دعوته، وبالتالي فهو الشاهد الممتاز المؤشر على هذه الظاهرة.

وينتقد مالك بن نبي تعريف الوحي لدى الشيخ محمد عبده (1849- 1905)، الذي قدمه في رسالة التوحيد بأنه "عرفان يجد الشخص في نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ويفرق بينه وبين الإلهام")[2]، ويرى بأن هذا التعريف يكتنفه الغموض فيما يتصل بتفسير اليقين عند النبي صلة الله عليه وسلم، وذلك في الأمور التالية:

أ – في الحالة التي لا يكون فيها الوحي منتقلا بطريقة محسة أو مسموعة سنقنع بالتعريف الذاتي المحض بمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم هنا لا يدري بصفة موضوعية، كيف جاءت المعرفة؟ لكنه يجدها في نفسه مع تيقنه بأنها من عند الله، فهناك ثمة تناقض إذ حين لا يدري النبي كيف جاءته المعرفة يكون الأمر مكاشفة والمكاشفة بطبيعتها لا تنتج يقينا مؤسسا على إدراك.

ب – فاليقين المؤسس على الإدراك في الآيات التي ورد فيها ذكر الوحي هو إدراك طبيعة الظاهرة المستقلة عن ذاته وليست القناعة الذاتية بأنها من عند الله[3].

وفي النموذج المتعلق بالأجواء الشعورية التي مر بها الرسول صلى الله عليه وسلم في مرحلة معاينة الوحي لحظة وقوعه، وحالة الانتقال من الشك إلى اليقين:

5 - في قوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ، وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ، فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ، أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ، وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم، الآية: 13/1].

يذكر مالك بن نبي[4] أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعد لديه أدنى شك أدبي أو عقلي، فإن الحكم لا يحول الشك المنهجي الذي عاناه، إلى شك مقصود لذاته. إذ أن الحقيقة العلوية للوحي تفرض نفسها فرضا على العقل الوضعي، فكل ما يراه وما يسمعه وما يشعر به وما يفهمه، يتفق الآن مع حقيقة واضحة تماما في ذهنه، جلية في عينيه: الحقيقة القرآنية.

[1] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص145.

[2] محمد عمارة: رسالة التوحيد للإمام الشيخ محمد عبده، دار الشروق، القاهرة، ط1، سنة 1994 ، ص101.

[3] عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، ج1، ص303.

[4] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص157.

وأكثر من ذلك، فإن إدراكه في هذا النطاق سيزداد ويتسع كلما تابع الوحي ضخ آياته البليغة، تلك التي تكون الكتاب الروحي الذي أحس به مطبوعا في قلبه في غار حراء، وإن هذا الاقتناع العقلي ليزداد رسوخا كلما ازدادت الهوة عمقا في عينيه بين ظنون (الإنسان) وما يجري على لسان (النبي).

وسيتابع الوحي نزوله بسور القرآن سورة سورة، فتتزاحم في وعيه الحقائق التاريخية والكونية والاجتماعية، التي لم يسبق أن سجلت في صفحة معارف عصره، ومناحي اهتمامه.

هذه الحقائق ليست مجرد تعميات غامضة، ولكنها معلومات محددة تضم تفاصيل هامة عن تاريخ الوحدانية.

وغني عن البيان أنه كي يؤمن (محمد)، ويستمر على الإيمان بدعوته يجب أن نقرر حسب تعبير فريدريك أنجلز Friedrich Engels (1820-1895) أن كل وحي لابد أن يكون قد (مر بوعيه) واتخذ في نظره صورة مطلقة، غير شخصية، ربانية في جوهرها الروحي، وفي الطريقة التي تظهر بها.

وفي النموذج التالي يلفت انتباهنا إلى الصورة الغريبة التي جاء عليها إيقاع الآيات، لما تمثل فيها الذات المحمدية من دور فريد:

6 - في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس، الآية: 22].

يذكر مالك بن نبي[1] دقة التعبير الجدير بالملاحظة في مفاهيم هذه الآية سعيا لاستيعاب أبعادها وملامحها، حيث يتم الانتقال غير العادي من ضمير(كم) إلى ضمير(هم)، لأنه لا يمكن أن يكون خطأ نحويا، إذ لا يمكن أن يتصور في ذلك الأسلوب الأدبي الكامل الذي يعد البرهان العظيم على دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، فلو كان في الآية خطأ لكان تصحيحه بعد قليل أمرا ضروريا وسهلا ممكنا.

فإذا لم يقع هذا من النبي الذي كان يقرأ القرآن لنفسه ولصحابته، فإنه يستتبع ألا يكون الخروج على القاعدة المطردة خطأ عنده، وهو يشهد بأن (محمدا) لم يكن لديه أي مقدرة على التصرف في النص القرآني.

فالذات المحمدية تتمثل في وضوح وعلى التوالي في دورين مختلفين، فهي مخاطب مقصود مباشرة داخل في ضمير المخاطبين الذين يتوجه إليهم الخطاب، ثم إنها تصير إلى شاهد غير مقصود مباشرة، موضوعا بصفة طارئة أمام مشهد عبر عنه القرآن بضمير الغائبين، هذا الانتقال غير المتوقع يستتبع حالتين نفسيتين لا يمكن أن تنتج الثانية منهما إلا من الأولى، أو هي نفسها هذا الحل إذا ما تمثلنا ذلك في ذات معينة، هي هنا ذات محمد.

وبعبارة أخرى، يجب أن يكون الضمير(هم) في الآية المذكورة النتيجة النفسية المباشرة للضمير(كم)، أو هو يصدر عنه بواسطة نتيجة وسيطة.

[1] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص164.

بينما نلاحظ من الوجهة النفسية أن الانتقال من (كم) إلى(هم) الفاعل المتتابع في الآية، لا يحدث انتقالا ما في طبيعة الصورة، فنحن نلحظ فيها أن الأفعال ترسم المشهد نفسه الذي يتتابع على اللوحة نفسها، على حين يتغير الفاعل، كما هو واضح.

فالانتقال إذن جزئي، ولكن هل يمكن من أجل هذا أن يحمل ذلك الانتقال الجزئي على مجرد تداعي المعاني الذي يجري في ذات محمد صلى الله عليه وسلم اللاشعورية ؟

الواقع أنه عندما يتدخل تداعي المعاني في عمليات اللاشعور- ولاسيما في الرؤى- فإنه لا يعدل الوضع النسبي للفاعل بانتقاله من شخص لآخر فحسب، ولكن الفاعل نفسه يتغير فعله.

فهنا على وجه التحديد فاعل ضمني هو الذات المحمدية التي يتغير وضعها بالنسبة للفاعل الحقيقي، ولكن الفعل يستمر كما هو في الآية المذكورة.

ولهذا فإن تداعي المعاني لا يمكن أن يتصور هنا على أنه السبب النفسي الذي حتم تعديلا معينا لا يظهر إلا في الشكل النحوي للآية، دون أن يتغير أي تفصيل في المشهد.

وفي النموذج التالي يبين دقة النسج وتتابعه وانسجامه مع معطى المادة التاريخية في الوحدات التالية:

7 - في قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون، الآية: 1].

حيث يفضل مالك بن نبي[1] أن يدرس هذا النص من خلال نظام الفقرات، فتظهر المسحة التاريخية في الفقرة الأولى التي تصور لنا حادثا عاديا هو حضور المنافقين بين يدي النبي، ولقد جاءت هذه الفقرة في مكانها فعلا، لأن الهدف العاجل من هذه الآية هو أن تصف لنا غدر المنافقين وكذبهم، فمن الواجب أولا أن تعطينا وصفا لإطار الحادثة، وهو كون المنافقين في حضرة النبي. أما الأفكار التالية لذلك فينبغي أن تجيء وفق نظام طبيعي يتبع درجة الأهمية، أي ينتقل من الفكرة الرئيسية إلى الفكرة التابعة، وخاصة في الأسلوب الخطابي كما هو شأن القرآن الكريم.

والفكرة الرئيسية هنا هي أن يعلن غدر المنافقين، وأن يكذبهم في مقالهم.

فإذا ما طبقنا هذه الملاحظة على ترتيب أفكار الآية صارت هكذا:

1. إذا جاءك المنافقون
2. قالوا نشهد إنك رسول الله
3. والله يعلم إنك لرسوله
4. والله يشهد إن المنافقين لكاذبون

وبهذه الصورة تصبح الآية بالتدقيق كاملة، ومطابقة للتركيب العربي، فيما عدا القلب الذي يطرأ على وضع الجملتين (3و4) لنردها إلى ترتيبها الطبيعي، ومع ذلك فربما نلاحظ أن الآية تتعرض في نسقها الجديد لنقد في الصميم، إذ تكون

[1] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص186.

برهانا خطيرا ضد القيمة العلوية للوحي، لأن معنى الفقرة(4) كله قد أصبح في التنظيم الجديد تكذيبا، لا لغدر المنافقين، بل لإقرارهم وشهادتهم بأنه رسول الله، ففي التركيب القرآني للأفكار دقة مذهلة، لأن الفقرة الثالثة التابعة تؤكد أولا صحة رسالة النبي – وهو ما شهد به المنافقون– قبل أن يعلن كذبهم في الفقرة الرابعة الرئيسي، هذا الترتيب الدقيق الذي يتميز بالعمق واليقظة البالغة يتنافى مع الظروف النفسية والزمنية التي تبرق فيها (الوحدة الكمية) للقرآن، حتى كأنما هي ومضة خاطفة.

وهو يتنافى أيضا مع الارتجالية والتلقائية لأسلوب القرآن، وواجبنا أن نذكر القارئ بأن الخطاب القرآني من الناحية الشكلية، يعد عرضا شفويا لا تظفر فيه الفكرة بالزمن المادي الكافي، لتحقيق الدقة المنطقية التي نلمسها في الأسلوب المكتوب.

فليس لدى الإنسان عندما يتحدث وقت لكي (يدير لسانه في فمه سبع مرات)، والأسلوب الخطابي عموما عرضة لزلات اللسان، على حين يقل تعرض الأسلوب المحرر للأخطاء العلمية، لأن لدى الكاتب فرصة (ليغمس القلم في الدواة سبع مرات)، قبل كتابة الفكرة.

فبحث الوحدة الكمية، تلك الومضة الروحية من الوحي، يبرز في آيات القرآن دلائل ترتيب وتفكير وإرادة، تعجز عن تفسيرها في حدود المعلومات التاريخية، والنفسية، التي أثبتناها للذات المحمدية.

وفي النموذج المتعلق بالمجاز القرآني تأكيد على وعيه العميق بدوره وآلياته الملائمة للسياق في دراسة الظاهرة القرآنية من وجهة نظر نقدية:

8 - في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور، الآية: 39].

حيث يقدم مالك بن نبي[1] مثالين من سورة النور يوضحان هذه الأهمية البالغة لأننا أمام عناصر مجاز عربي النوع، فأرض الصحراء قد طبع عليه انعكاسهما، فليس ما نلاحظه مما يتصل بالظاهرة القرآنية التي تشغلنا، سوى ما نجده في الآية من بلاغة، حين تستخدم خداع السراب، لتؤكد بما تلقيه من ظلال تبدد الوهم الهائل، لدى إنسان مخدوع، ينكشف في نهاية حياته غضب الله الشديد، في موضوع السراب الكاذب...سراب الحياة.

9 - وكذلك ما يتعلق بالمجاز في الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور، الآية: 40].

فهذا المجاز يترجم على عكس سابقه عن صورة لا علاقة لها بالوسط الجغرافي للقرآن، بل لا علاقة لها بالمستوى العقلي، أو المعارف البحرية في العصر الجاهلي، وإنما هي في مجموعها صورة منتزعة من بيئة بعيدة نائية كالبلدان الشمالية التي يلفها الضباب، ولا يمكن المرء أن يتصورها إلا في النواحي كثيفة الضباب في الدنيا الجديدة أو في (إيسلندا). فلو افترضنا أن

[1] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص295.

النبي صلى الله عليه وسلم رأى في شبابه منظر البحر فلن يعدو الأمر شواطئ البحر الأحمر أو الأبيض. ومع تسليمنا بهذا الفرض فلسنا ندري كيف كان يمكن أن يرى الصورة المظلمة التي صورتها الآية المذكورة ؟

وفي الآية فضلا عن الوصف الخارجي الذي يعرض المجاز المذكور في سطرين، أولهما: الإشارة الشفافة إلى تراكب الأمواج، والثاني: هو الإشارة إلى الظلمات المتكاثفة في أعماق البحار، وهاتان العبارتان تستلزمان معرفة علمية بالظواهر الخاصة بقاع البحر، وهي معرفة لم تتح للبشرية، إلا بعد معرفة جغرافية المحيطات، ودراسة البصريات الطبيعية. وغني عن البيان أن نقول: إن العصر القرآني كان يجهل كلية تراكب الأمواج، وظاهرة امتصاص الضوء واختفائه على عمق معين في الماء، وعلى ذلك فما كان لنا أن ننسب هذا المجاز إلى عبقرية صنعتها الصحراء، ولا إلى ذات إنسانية صاغتها بيئة قارية.

ويختم في نهاية دراسته للظاهرة القرآنية بتفصيل القيمة الاجتماعية لأفكار القرآن الكريم حيث سلط الضوء على مشكلة الخمر وكيفية التدرج في تطبيق قرار تشريعي يؤطره تخطيط نفسي بديع:

10 - قوله تعالى في الموقف الأول: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة، الآية: 219].

و في الموقف الثاني، قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء، الآية: 43].

وفي الموقف الثالث، قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة، الآية: 90].

حيث يعلق مالك بن نبي[1] على هذه المراحل الثلاثة بما يبرز القيمة الاجتماعية للقرآن الكريم وتأثيرها الروحي والخلقي مما لا يستطيع أي تشريع وضعي أن يحدثه من أثر في هذا المجال. فالآية الأولى أثارت آثام الخمر في ضمير المسلم فكانت هذه الطريقة المتحفظة في إثارة المشكلة وهكذا شقت طريقها في ضمير الصفوة المختارة من الوجهة النفسية، والآية الثانية رتبت خطرا خلقيا بالامتناع عن شرب الخمر خلال أوقات الصلاة، والآية الثالثة رتبت التحريم النهائي.

إذن ليس من الغريب أن يركز مالك بن نبي على تشكلات المقاطع ذات الدلالات التي تتشخص ظلالها الروحية العميقة والمؤثرة بكل ما تحمله في مكوناتها اللفظية من معان عميقة ذات أبعاد جمالية، والتي لم تنتبه لها مشاريع التفسير التقليدي، "في مبادرة استهدفت إحياء مواعظ القرآن الكريم بعد أن خمدت في صدور أقوام ما بعد الموحدين"[2].

7. عناصر الظاهرة القرآنية:

آثر مالك بن نبي تسليط الضوء على عناصر اعتبرها مفاصل تمكن من مقاربة الظاهرة القرآنية منها:

[1] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص297.

[2] عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ص146.

– الألوهية:

ثمة عمل كبير يتعين القيام به حسب مالك بن نبي في دحض الشبهات التي أثارتها التقاليد الفكرية الغربية وقناعاتها حول الألوهية وخاصة فيما يتعلق بالمعطيات التي تستمد مشروعيتها النظرية من تصورات ومقررات الفكر المسيحي واليهودي وفضاءاتهما الإبستيمية. "فالله خالق ومدبر للكون، وسبب أول ينبثق عنه كل موجود... وهذه الحتمية الغيبية (الميتافيزيقية) تسعفنا حين تعجز القوانين الطبيعية عن إعطاء تفسير واضح للظاهر، وبذلك ينتج عنها مذهب كامل متسق متجانس لا نقص فيه ولا تعارض، مما لزم المذهب المادي "[1].

وتؤكد هذه الإشارات على الترابط الوثيق في هذه المسألة الدقيقة "فلقد قضى على فكرتي التعدد والتشبيه دون نقص أو إبرام. أما ما بقي من صلة بينه وبين الأديان الأخرى فهو في روح الآيات إن لم يكن في نصها، وهكذا يتقرر بجلاء الأساس النظري الذي ستنبثق عنه الدراسات الدينية الإسلامية وتتطور"[2].

– النبوة:

بناء على القرائن الكثيرة التي توفرت عند مالك بن نبي فقد كان مهيئا للاعتراف بالتأثير الكبير والحاسم لحركة النبوة على فهم الظاهرة القرآنية. ونبه مبدئيا إلى ضرورة ملاحظة "أن مبدأ النبوة يعرض بوصفه ظاهرة موضوعية مستقلة عن الذات الإنسانية التي تعبر عنه"[3].

ولذلك يقرر أنه لا يمكن الاستغناء في دراسة الظاهرة القرآنية عن معرفة الذات المحمدية، ومن هنا عكف على دراسة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بدءاً بطفولته، ومروراً بالظروف التي تهيأت له بزواجه بالسيدة خديجة رضي الله عنها، وصولاً إلى إرهاصات النبوة ثم بعثته ونزول الوحي.

ومن حيث الإطار العام "فإن معرفة النبي (الظاهرة) أساس لأية دراسة نقدية للموضوع، فيونس وأرمياء ومحمد عليه الصلاة والسلام أفراد أرادوا أولا أن يتملصوا طواعية من دعوة النبوة فقاوموا، ولكن دعوتهم استولت عليهم أخيرا، فمقاومتهم تدل على التعارض بين اختيارهم والحتمية التي تطوق إرادتهم، وتتسلط على ذواتهم، وفي هذه الدلائل قرينة للنظرية الموضوعية عن الحركة النبوية"[4].

وهذه الإشارات يكتسي طرحها مزيدا من الأهمية ويفتح أفقا مميزا لتعميق النظر "فحياة الأنبياء وتاريخهم يمنعنا من أن نعدهم مؤمنين مندفعين دون تعقل وبكل بساطة، إلى الخوارق والمعجزات، أو أن نحكم بأنهم معتوهون بأصل خلقتهم، اختلت عقولهم وبصائرهم بنقائص مزمنة، فهم يمثلون –على العكس – الإنسان في أسمى حالات كماله البدني والخلقي والعقلي، وشهادتهم الاجتماعية تحظى في نظرنا بالثقة التي تستحقها. وإذن فمن الواجب في المقام الأول أن نلجأ إلى هذه

[1] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص79.
[2] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص201.
[3] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص87.
[4] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص92.

الشهادة لكي نثبت القيمة التاريخية للوقائع التي نخضعها لنقدنا، ثم يبقى علينا أن نحلل مجموع هذه الوقائع في ضوء العقل المتحرر من ربقة الشك المطلق الذي لا هدف له"[1].

– الوحي:

من خلال الخصائص الظاهرية للوحي تطرق مالك بن نبي إلى كيفية الوحي باعتبارها "عنصرا رئيسيا في نظر الناقد الذي يريد أن يدرس الظاهرة القرآنية بالنسبة للذات الواعية عند محمد صلى الله عليه وسلم"[2].

وكذلك إدراك نوع الظاهرة التي يمكن أن تكون خلف لفظة (وحي) والتأكيد "أما يقين النبي فقد كان كاملا، مع وثوقه بأن المعرفة الموحى بها غير شخصية وطارئة وخارجة عن ذاته"[3].

وقد سعى مالك بن نبي في هذا المقام إلى تميز السمات الخاصة بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ لكي يتوصل من خلال إعادة القراءة وتفكيك الخطاب إلى أن ظاهرة الوحي خارجة عن شخصه، وأنها ليست ظاهرة مرتبطة بالجوانب الذاتية، كما ذهب لذلك كثير من المستشرقين ضمن قراءتهم المتحيزة التي يصرعها الجدل وعقم الأجوبة.

يؤكد مالك أن الوحي من حيث كونه ظاهرة تمتد في حدود الزمن، يتميز بخاصتين ظاهرتين هامتين: تنجيم الوحي. ووحدته الكمية.

يقصد مالك بـ (تنجيم) الوحي نزوله على دفعات وفترات بين كل وحي وما يليه مدة انقطاع تتفاوت طولا وقصرا ولقد ينقطع الوحي مدة أطول مما ينتظره النبي، وخاصة عندما يحتاج أن يتخذ قرارا يعتقد أن من الواجب ألا يصدره قبل تصديق السماء عليه. وهو يقرر بهذا الصدد أن القرآن لو نزل جملة واحدة، لتحول سريعاً إلى مجرد وثيقة دينية، لا مصدراً لانبعاث الوجود. وفوق ذلك فهو يرى أن الحركة التاريخية والاجتماعية والروحية والتربوية التي نهض بأعبائها الإسلام والتي وجدت طريقها إلى القلوب والضمائر، يكمن سرها في هذا التنجيم.

ويقصد بـ (الوحدة الكمية) أن آياته تنزل لمعالجة موضوع معين ومحدد فهو في أساسه متفاصل. يقول موضحا رؤيته لهذا المقصد: "أي أنه متكون من وحدات متتالية هي الآيات، وهذه الخاصية توحي إلينا بفكرة الوحدة الكمية، فكل وحي مستقل يضم وحدة جديدة إلى المجموعة القرآنية"[4].

– المعاد:

[1] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص88.
[2] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص143.
[3] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص144.
[4] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص182.

توصل مالك بن نبي إلى طرح السؤال عن إمكانيات التفكير في هذا الموضوع حيث نجح في شد المتناقضات والجمع بينها عند فحص المنظومات الثقافية والأنساق المعرفية والمرجعيات الفكرية، خاصة إذا تعلق الأمر في هذا المقام بحقائق يقينية لا يرقى إليها الطعن. "إن خلود الروح، تلك الفكرة الجوهرية في الثقافة التوحيدية، يستتبع نتائج منطقية هي: نهاية العالم، يوم الحساب، الجنة، النار"[1].

وعلى الرغم مما يتوشح به الموضوع من أهمية " لم تلق عليه الكتب العبرية إلا شعاعا خافتا، لأنها كانت مهتمة بالتنظيم الاجتماعي لأول بيئة توحيدية. ثم جاء الإنجيل فزاده إيضاحا حين ألح على بني إسرائيل في تذكيرهم (بأيام الله)، ذلك المفهوم الموجه إلى مجتمع موحد قطع في طريق التطور شوطا. وسنرى أن القرآن يبرز في هذا المجال الأخروي إبرازا مؤثرا، فلقد قصت فيه رواية الخلود بنبرة خاشعة رهيبة، في أسلوب فاق الذروة في بلاغته، وقد بثت في أنحائه صور ومشاهد تسكب الخشية في قلوب العباد مما لا يمكن معه لإنسان- حتى في هذه الأيام- أن يصدف عن مشاهده الهائلة"[2].

– الغيب:

أمام التأثيرات العائقة في مقاربة موضوع الغيب انطلاقا من صرامة البداهة نظر مالك بن نبي في الموضوع من زاوية جذبت دارسين وفلاسفة كانوا مهتمين بالضبط بمعطياته، وهو مطلب ملازم للوضع الإنساني وعلى صلة حميمة بالوجود.

ويقرر مالك بن نبي أنه "منذ الاستكشافات الأخيرة لعلم الفلك فطن العالم إلى نطاقه المنتهي المحدود، وفيما وراء السديميات السحيقة في البعد، وراء ملايين السنين الضوئية، وربما ملياراتها، تمتد الهاوية التي لا قرار لها، إلى اللانهائية التي يستحيل الوصول إليها، أو حتى إدراكها بالنسبة للفكر العلمي، إذ لا يجد هذا التفكير موضوعه الخاص وهو: الكم والعلاقة والحالة. فأي كم؟ وأية علاقة؟ وأية حالة؟ كل هذه الأسئلة لا معنى لها خارج حدود المادة، والعلم نفسه لا معنى له وراء السديميات الأخيرة التي تقف على الحدود بين عالم الظواهر، واللانهاية اللامادية"[3].

[1] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص203.

[2] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص204.

[3] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص81.

خاتمة:

استنادا إلى نظرية فريدريك هيجل Fredericke Higuel (1770-1831) التي تعتمد ملاحظة الظواهر؛ كشفت مقاربة الظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي عن أهم الخصائص البنيوية انطلاقا من الكلية والتنظيم الذاتي في تقاطعها مع التاريخ المقارن للأديان وإضاءة الجوانب المعتمة في تدفق وبهاء، وامتلكت معالجته إمكانية الرد على الأسئلة المعرفية ذات الطابع الإشكالي والنوعي، والتي لا تستكين إلى الإجابات التقليدية وأعرافها وصورها الجاهزة، ولا يقدر عليها إلا المحترف الموهوب صاحب العقل الذي يجدد ذاته، كل هذا تم تمثيله بحساسية فائقة الحسم تتموقع بين حدي الكائن والممكن بصياغات وإضافات في الأهداف والوسائل:

- الظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي هي استيعاب تجاوزي للمشاريع السابقة وفعل التجاوز واضح وجلي في نزوعها التغييري وفي جهازها المفاهيمي والمصطلحي.
- يعد كتاب الظاهرة القرآنية من أهم الدراسات العلمية المنهجية في إثبات صحة دليل النبوة وصدق دليل الوحي، وأن القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه وتعالى وليس كلام البشر.
- يستند مالك بن نبي في مذهبه التفسيري على حركة الأفكار وإحالتها المرجعية المرتبطة بالسياق الاجتماعي وعيا بأهميتها كجزء من تراثنا الفكري والحضاري.
- ركز مالك بن نبي على تفسير الآيات المتعلقة بالتنظيم الاجتماعي والسياسي وفواعلها التكوينية وتفاصيلها الدقيقة في صناعة التاريخ وتوجيه حركته.
- التأكيد على اتساع وعمق المعرفة التي تحملها بنية الخطاب القرآني بجلالها وجمالها وانسجامها وتوازنها وإعجازها.

المصادر والمراجع:

1. إبراهيم السكران: مصحف البحر الميت، أنظر الدراسة على الموقع، https://saaid.net/bahoth/133.doc
2. أحمد بوعود: كيف تعامل مالك بن نبي مع القرآن؟ أنظر المقالة على الموقع، http://www.binnabi.net
3. ثروت عكاشة: المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية، مكتبة لبنان، 1990.
4. عبد القادر بخوش: القراءات المعاصرة للقرآن الكريم بين مالك بن نبي ومحمد أركون، رؤية نقدية، أنظر ندوة جامعة قطر على الموقع، http://www.qu.edu.qa/ar/sharia
5. عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، منشورات ابن مرابط، الجزائر2014.
6. عبد الله العروي ومجموعة من الباحثين: المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1986.

7. عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، منشورات ابن مرابط، الجزائر2016.
8. مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4، 1987.
9. مالك بن نبي: العفن، منشورات ابن مرابط، الجزائر2016.
10. مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2013.
11. مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، 1984.
12. محمد أركون: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط2، 2005.
13. محمد البنعيادي: مالك بن نبي في ذاكرة عبد السلام الهراس، كتاب مجلة العربية، السعودية، عدد395، ذو الحجة 1430، ديسمبر 2009.
14. محمد عمارة: رسالة التوحيد للإمام الشيخ محمد عبده، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1994 .
15. Michel Mensuy : Gaston Bachelard et les éléments, Librairie José Corti, Paris 1967.